Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويدلل أبو هلال العسكرى على الأهمية الأسلوبية لمراعاة البعد المكانى أو المقام، بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- "قد اعتمد فى موضع تجنّب السجع وهو معرّض له وكلامه كان يطالبه (فقال) وما يدرك أنه شهيد... لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا ينفعه... ولو قال بما لا يغنيه لكان سجعاً".[1] ويتدخل العسكرى فى إلقاء مزيد من الضوء على هذا الاختيار الذى يتعلق بنظام بنائى محدد يكون للمقام فيه فاعليته التوجيهيّة؛ فالصياغة هنا كانت محكومة بطبيعة المقام وبأطرافه، حيث تتحقق البلاغة من خلال حواريّة تراعى الآخر استمالة وإقناعًا عن وعى وقصد من قِبل متكلّم دفعه وعيه بالمقام إلى تشكيل صياغته على نحو مخصوص، فالحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قول الرسول "ينفعه" كان أليق بالمقام فعدل إليه لما لذلك الدال من قدرة على إنتاج المعنى المراد.[2] وما السجع إلا مدّخر من إمكانيات الصياغة والتعامل معه أو تركه مرهون بمسوّغات، إذ إن الكلام، وبخاصة البلاغى ليس صنعة بلا موجهات وإنما يتكئ على مرجعيات أساسية من أهمها مراعاة السياقات الخارجية المصاحبة لإنتاج الحدث اللغوى، وهو ما أدركه البلاغيون تحت مقولة (المقام والحال). ويركز ابن النفيس فى كتابه "طريق الفصاحة" على المقام باعتبار مراعاته خطّاً أساسيا فى الوصول إلى التأثير الاستحسانى للسجع ولغيره من الأدوات البلاغيّة، فيذكر أنه لا "يكفى فى حسن السجع ورود القرآن به، قال: ولا يَقدَح فى ذلك خلوه فى بعض الآيات، لأن الْحَسن قد يقتضى المقام الانتقال إلى أحسن منه".[3] فلكى نقيِّم عنصرًا تعبيريًا ما يلزمنا رصد البعد المكانى، وإقامة اعتبار له، فالسجع مثلاً ليست مزيَّته ذاتية بحيث نحكم بالحسن كلما واجهنا بل إن هذه المزيّة ترتكز على أمرين باعتبار أن السجع لا يبتعد تمامًا عن تشكيل الناتج الدلالى، أولهما: توافق الناتج المراد مع الصياغة. والآخر: التواؤم بين الناتج الدلالى والمقام والحال.

هكذا يؤسس التوافق بين الكلام وبين مقتضى الحال والمقام قاعدة تشكل

---

(١) الصناعتين، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٧، جـ٣، ص٢٩٥.